مقدمة:ـ

هذا هو الكتاب الأول في موسوعة "سلاطين المماليك، تاريخهم، آثارهم، أوقافهم"، وقد ولدت دولة المماليك بمصر سنة 648هـ/ 1250م، واستطاع سلطانها الثالث المظفر قطز أن يضم بلاد الشام إلى مصر عقب معركة عين جالوت سنة 658هـ/ 1260م، واستطاع سلطانها الرابع الظاهر بيبرس أن يفرض سيطرته أيضًا على بلاد الحجاز والنوبة، وتمتعت السلطنة المملوكية في أيامه بمكانة مرموقة في الشرق الأدنى، وحافظت على كيانها كقوة عظمى لأكثر من قرنين حتى نافستها في الربع الأخير لها، الدولة العثمانية، حيث شاخت دولة المماليك وهرمت وسقطت على يديها في أول سنة 923هـ/1517م.

وكان القائم على حكم هذه الدولة هم المماليك الذين وفدوا على مصر والشام من آسيا وأوروبا، وإن غلب عليهم جنس الترك وجنس الجركس، ونظرًا لما وجده هؤلاء المماليك من حياة مميزة عن حياة الوطنيين الذين يحكمونهم لذلك أخلصوا في الدفاع عن البلاد وأظهروا بطولة وشجاعة وعزم وإصرار، واستطاعوا القضاء على كل الإمارات الموجودة بساحل الشام وإجلاء من تبقى من الصليبيين على قيد الحياة، كما استطاعوا أن يكمحوا قوة المغول والتتار الذين اكتسحوا معظم أراضي آسيا وشرق أوروبا، بل من خلال التبادل التجاري والعلاقات الخارجية معهم أثروا فيهم واعتنق كثير منهم الاسلام وأصبحوا من جنوده.

وقد تمتع سلاطين وأمراء المماليك بثروات خارجية هائلة بجانب ثروات البلاد المحلية المهيمنين عليها تمثلت في الضرائب الباهظة التي فرضوها على تجارة جنوب شرق آسيا إلى أوروبا عن طريق موانئ الحجاز ومصر والشام مما أدى إلى انفاقهم بسخاء على العمائر المتنوعة والمشاريع العمرانية والحضرية، فخلفوا هذا التراث المعماري والفني الذي نتيه به بين الأمم الآن.

وتناول هذا الكتاب تاريخ السلاطين الثلاثة الأول لتلك الدولة وهم: المعز أيبك، وابنه المنصور علي، والمظفر قطز، ولما كانت فترة حكمهم التي امتدت عشر سنوات هي فترة تكوين الدولة والدفاع عنها ضد الأيوبيين بالشام والصليبيين والتتار، وكانت معظم أيامهم في حالة حرب أو تجهيز لحرب، ويبدو أن هذا كان له أثر سلبي في عدم احتضانهم في هذه الفترة للأدباء والعلماء والشعراء والمؤرخين، لهذا لم يصل إلينا مصادر تاريخية معاصرة

لحكمهم فجاء تاريخهم مقتضبًا من خلال مؤرخين نقلوا عن مؤرخي هذه السنوات العشرة لم تصلنا كتبهم، وقد تردد أسماء ابن واصل وأبو شامة وابن شداد والجزري أحيانًا في المصادر التي ألفنا من خلالها هذا الكتاب، وسوف نجد في الأجزاء التالية وفرة في المصادر التاريخية المعاصرة للسلاطين التالين لهم.

ويحتوي هذا الكتاب على مقدمة تتناول نشأة دولة المماليك ويتبعها ثلاثة فصول لتاريخ السلاطين الذين حكموها، ثم ملحقين. وللأسف لم يتبق من هذه الفترة أي آثار معمارية، حتى أن المدرسة المعزية التي أنشأها المعز أيبك على ساحل نيل مصر القديمة قد اندثرت منذ زمن بعيد.

ويسعدني أن أهدي هذا الكتاب الأول من الموسوعة للزميل السيد الشريف/ عبد الجواد حجاجي بالأقصر ولبقية الزملاء هناك، وعلى الله قصد السبيل.

محمد الششتاوي

تمهيد:ـ

بعد وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية توزعت أقسام دولته بين أبنائه وأخوته وأبناء أخوته، ثم دب الخلاف فيما بين هؤلاء وقامت حروب فيما بينهم وبين بعض، بالإضافة إلى المنازعات والحروب فيما بينهم من ناحية وبين أبناء البيوت القديمة الأخرى التي ظلت تحكم إمارات بالشام والعراق.

ولذلك استعان ملوك وأمراء الأيوبيين بمماليك في جيوشهم، وهؤلاء المماليك كانوا رقيقًا أبيض يجلبهم النخاسون (تجار الرقيق) صغارًا من أنحاء شتى وخصوصًا من بلاد القفجاق وما وراء النهر، واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم.

وقد ظل أولئك المماليك الأتراك أداة سهلة لينة في أيدي سادتهم الأيوبيين طالما احتفظ هؤلاء السادة بقوتهم وهيبتهم، وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل في احتفاظ خلفاء صلاح الدين – وبخاصة العادل والكامل- بتفوقهم الحربي في وجوه خصومهم من الصليبيين ومنافسيهم من أمراء المسلمين، ولم يلبث أن أصبح المماليك الأداة التي لا غنى عنها لملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم، مما أدى إلى تضخم نفوذهم السياسي نتيجة لشعورهم بأهميتهم[1].

وكان للممالك فضل كبير في إحلال الصالح نجم الدين أيوب مكان العادل الثاني في السلطنة، لذا عمل الملك الصالح نجم الدين أيوب (637-647هـ/ 1240-1249م) على الإكثار من شراء المماليك الترك والاعتناء بهم وبتربيتهم تربية عسكرية وتربية إسلامية صحيحة للوقوف في وجه منافسيه من أبناء البيت الأيوبي ومن الصلبيين، وسماهم البحرية لسكناهم معه في قلعته التي أنشأها في الجزء الجنوبي من جزيرة الروضة وسط بحر النيل المبارك أمام مصر القديمة[2].

وفي سنة 647هـ/ 1248م خرج لويس التاسع ملك فرنسا على رأس حملة صليبية كبيرة قاصدًا مصر ذات الثقل في منطقة الصراع الصليبي الإسلامي، وهي في نفس الوقت مفتاح

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، نشر دار النهضة العربية بالقاهرة، الطبعة الأولى، 1965م، ص 4.

[2] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، نشر دار الكتب، 1934م، جـ 1، ص 339-340.

بين المقدس، لتدعيم الصليبيين بفلسطين، وقد وصل لويس على راس الحملة الصليبية السابعة ومعه صليبيو الساحل إلى شواطئ مصر، في الوقت الذي كان الصالح نجم الدين أيوب يعاني مرضًا خطيرًا، ولم تكد الأخبار تصل مسامعه عن قرب تعرض مصر لخطر صليبي حتى حملوه في محفة ونزل في أشموم طناح قرب مدينة المنصورة في المحرم سنة 647هـ / أبريل مايو 1249م ليرقب الموقف عن قرب[1].

واستطاع لويس التاسع أن يستولى على دمياط بسهولة وبغير قتال حقيقي يوم الأحد 22 صفر سنة 647هـ/6 يونية سنة 1249م[2]، وحزن الصالح وزاد مرضه، فحملوه إلى قصر بالمنصورة (يوم الثلاثاء 24صفر/ 8 يونية) حيث ظل ينظم شئون الدفاع وهو على فراش الموت، وبقي الصليبيون بدمياط حتى ينتهي تأثير فيضان النيل على أراضي الدلتا، ويعيق تقدمهم، ثم توفى المالك الصالح نجم الدين أيوب ليلة الإثنين النصف من شعبان سنة 647هـ/ 22 نوفمبر سنة 1249م[3].

وتصرفت شجر الدر زوجة الصالح بحكمة وأخفت خبر موته، وأرسلت على عجل تستدعي توران شاه ابن الصالح من مقر حكمه في حصن كيفا من ديار بكر بأعلى الفرات، واستمرت المناشير السلطانية تخرج كل يوم وعليها علامة السلطان الملك الصالح والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حيًا[4].

وبالرغم من ذلك فقد تسرب خبر وفاة الصالح إلى المعسكر الصليبي، فترك لويس جزءًا من جيشه بدمياط ومعهم زوجته مرجريت، وخرج بالجزء الآخر من جيشه من دمياط، ودخل مدينة فارسكور بدون مقاومة ثم دخل مدينة شارمساح، وعسكر لويس بجيشه على الضفة الغربية للنيل أمام المنصورة[5]، وبدأت مقدمة جيشه بقيادة أخيه روبرت كونت أرتوا ومعه ألف وخمسمائة من الفرسان والمشاة في العبور بسرعة إلى المنصورة وخاضوا في دروبها

---

(1) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 333.

(2) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 336.

(3) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 339.

(4) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 339، 344، 346، 352، 353.

(5) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 347.

وأزقاتها، فانقض عليهم المماليك البحرية وغيرهم من الجنود ومعهم المتطوعة، ورموهم الأهالي من أعلى البيوت بالأسلحة والأحجار والزيوت المغلية، وقتلوا معظم هؤلاء وعلى رأسهم الكونت وفرسان الاسبتارية والانجليز وغيرهم وكان ذلك يوم الثلاثاء 5 ذي القعدة سنة 647هـ/ 8 فبراير سنة 1250م[1].

ثم وصل توران شاه، وطارد الجيش الأيوبي الصليبيين وقطعوا عنهم وسائل الاتصال بمعسكرهم بدمياط، وأوقعوا بهم هزيمة كبيرة عند منيه عبد الله غرب فارسكور يوم الأربعاء، محرم سنة 648هـ/ 6 إبريل سنة 1250م، ووقع الجيش الصليبي بين قتيل وأسير، وعلى رأس الأسرى الملك لويس التاسع نفسه الذي سيق مكبلًا في الأغلال إلى دار القاضي فخر الدين ابن لقمان كاتب الانشاء بمدينة المنصورة والتي لا تزال قائمة للآن[2].

ولم يحفظ المظفر توران شاه الجميل لزوجة أبيه شجر الدر التي حفظت ملكه واستدعته ليتسلمه بعد وفاة أبيه الملك الصالح، وكانت قد ذهبت إلى القدس، وبعث إليها يهددها ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر، فداخلها منه خوف كثير لما بدا منه من الهوج والخفة، وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته من حقه من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة، وما جازاها من التهديد والمطالبة بما ليس عندها، فانفوا لها وحنقوا من أفعال السلطان[3].

ولم يكن المماليك البحرية بحاجة إلى من يستثير هممهم ضده، فقد أحسوا بقوتهم وفضلهم في القضاء على الصليبيين وبدلًا من مكافأتهم أبعدهم، واكتفى بمجموعة من الغرباء كان قد أحضرهم معه من حصن كيفا، فوزع عليهم الاقطاعات والوظائف التي حرم منها المماليك، وقال المقريزي: "وأساء السلطان إلى المماليك وتوعدهم، وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول: هكذا أفعل بالبحرية، ويسمي كل واحد منهم بإسمه، واحتجب أكثر من ابيه، مع الإنهمال على الفساد

---

[1] أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان ونبيل الجرودي، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1985م، ص 267-268.

[2] المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 355-356.

[3] المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 358.

بمماليك أبيه، ولم يكونوا بألفون هذا الفعل من أبيه، وكذلك فعل بخطايا أبيه[1]"، وحرضت شجر الدر المماليك البحرية على قتل توران شاه وخوفتهم على أنفسهم من غدره بهم وقالت لهم: "أقتلوا توران شاه وعلى رضاكم"، فاتفق زعمائهم على قتله وعلى رأسهم بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحي وأقطاي الجمدار وأيبك التركماني، وفي يوم الأثنين 28 محرم سنة 648هـ / 2 مايو سنة 1250م أثناء وجود توران شاه بفارسكور، بادره أولئك الأمراء بالسيوف، ففر ليحتمي بكشك خشبي كان قد أعد لإقامته، ولما أغلق الكشك عليه أشعل المماليك النار فيه، وعندئذ ألقي توران شاه بنفسه في النيل وأخذ يسبح طالبًا النجاة، ولكنهم لاحقوه بالسهام من كل ناحية، فمات "جريحًا حريقًا غريقًا[2]".

غدا المماليك بعد مقتل توران شاه أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في شئون مصر، وقد اختار المماليك عصمة الدين أم خليل شجر الدر أرملة أستاذهم الصالح أيوب لتكون سلطانة على البلاد، وقد اختلف في أصل شجر الدر، فقيل أنها كانت جارية تركية الجنس وقيل بل أرمينية، واشتراها الملك الصالح أيوب وحظيت عنده، حتى أعتقها وتزوجها، لذلك فهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك، حتى أعتبرها المقريزي "أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك[3]"، بينما عدها المؤرخون الذين ينتمون إلى العنصر المملوكي مثل ابن أيبك وابن تغري بردي وابن إياس امتدادًا للعصر الأيوبي واعتبروا زوجها أيبك هو أو ل سلاطين دولة المماليك بمصر والشام.

وبالرغم من الإجراءات التي اتخذتها شجر الدر لتدعيم مركزها في الحكم مثل خفض الضرائب عن الرعية واستمالة كبار رجال الدولة، إلا أن وضعها كامرأة تحكم سلطنة إسلامية كانت مثار النقد في العالم الإسلامي آنذاك ونقد الخلافة العباسية في بغداد، إذ بعث الخليفة العباسي المستعصم للأمراء بمصر خطابًا به عبارته الشهيرة: "إن كانت الرجال قد عدمت

---

[1] المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 359.

[2] المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 360؛ ابن تعري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد بك رمزي، طبعة دار الكتب، جـ 6، ص 370-373.

[3] السلوك، جـ 1، ص 361.

عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجالًا[1]"، وثار الأيوبيون بالشام لمقتل توران شاه، فاستولى الملك السعيد حسن الأيوبي على غزة وقلعة الصبيبة، وملك الملك المغيث عمر الأيوبي الكرك والشوبك، واتهمها البعض بالتفريط مع الصليبيين وأنها المسئولة عن إطلاق سراح لويس التاسع ملك فرنسا ليواصل نشاطه الصليبي في بلاد الشام.

وللخروج من ذلك المأزق "خلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر"، ووافقت على التزوج من الأمير عز الدين أيبك – أتابك[2] العسكر- على أن تترك له وظيفة السلطنة، وكان ذلك في أخر شهر في ربيع الآخر سنة 648 هـ / يوليو سنة 1250م، وبذلك انتهى عهد شجر الدر بعد أن ظلت في الحكم ثمانين يومًا أثبتت فيها مهارة نادرة وكفاية ممتازة[3].

---

[1] المقريزي، السلوك، جـ 1، 368.

[2] أتابك بمعنى مقدم أو قائد.

[3] المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 367- 368؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص 15.